البابُ الأول

عصر حسان

الفصل الأول

جاهلية العرب قبيل الإسلام

الجاهلية ومعناها

يطلق لفظ الجاهلية على أحوال العرب منذ كانوا إلى ظهور الإسلام ، وليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة ، وإن كان الجهل من معانيها[1] ، وإنما الغرض منها الجهالة التى هى السفاهة والغضب ، والتى كانت تؤدى إلى الهمجية وانتشار الضلالة وعبادة الأوثان واستباحة القتل والمنكرات ، وانتهاء ذلك بتأريث العداوة بينهم وقيام الحروب وتفرق الكلمة[2] .

وليس يعنينا هنا البحث فى أحوال العرب منذ كانوا ، لأنه خارج عن نطاق موضوعنا ، ولأن أخبار الجاهلية الأولى مبنية فى الغالب على الحدس والتخمين لاستغراقها فى القدم ، وانعدام الوثائق والآثار الدالة عليها ، وضياع ما كان معروفاً منها بتمادى الأيام[3] .

وإنما الذى يعنينا هو تعرف أحوال الجاهلية الأخيرة من القرن الخامس الميلادى حتى ظهور الإسلام ، ذلك الزمن الذى وَلد عصر حسان وترك أثره فيه .

العرب

وليس العرب سكان جزيرة العرب وحدها ، فقد كانت لهم مساكن فيما حولها ، ولكن الجزيرة كانت مسكناً لأكثرهم وأهم مساكنهم ، فأضيفت إليهم[4] ، وهم شعب سامى يرتبط بغيره من الشعوب السامية بروابط اللغة والأصل والموطن القديم .

---

(١) انظر لسان العرب .

(٢) هاشم عطية : الأدب العربى وتاريخه ص ٦ ، أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٣ – ٨٤ .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ١ / ٢٥ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١ .

الجزيرة العربية وأقسامها

وجزيرتهم إقليم فى الجنوب الغربى من آسيا ، يحد من الشمال ببادية الشام ، ومن الشرق بالخليج الفارسى وبحر عُمَان . ومن الجنوب بالمحيط الهندى ، ومن الغرب بالبحر الأحمر .

وأقسامها الجغرافية :

١ — **تهامة** : وهى سهل ساحلى فى غربى الجزيرة .

٢ — **الحجاز** : وهو إقليم جبلى رملى ، يفصل بين تهامة غرباً ونجد شرقاً ، وأهميته ترجع إلى وقوعه على الطريق التجارى الذى يربط اليمن ببلاد الشمال ، وإلى وجود البيت الحرام به ، وأهم مدنه مكة والمدينة والطائف .

٣ — **نجد** : وهو إقليم جبلى مرتفع يقع شرقى الحجاز ، وبادية السَّماوة فى شماله ، والعروض واليمن إلى الجنوب منه ، وقد انتشرت فيه أراض صالحة للزراعة ، وهو أصح بلاد العرب وأجودها هواء .

٤ — **اليمن** : هى القسم الجنوبى الغربى من الجزيرة ، عرفت قديماً بالخصب والغنى ، وأشهر مدنها صنعاء ونجران وعدن . وكان اليونان يسمونها « بلاد العرب السعيدة » وكانت تربطها بالهند والشرق الأدنى روابط تجارية . وإلى الشرق منها تقع حضرموت ، وفى شرق حضرموت ظَفَار ، وهى من قديم مصدر للتوابل والطيب والبخور، ولا يزال إلى اليوم يرسل منها إلى الهند . وعُمَان فى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة ، وأرضه جبلية ، ولأهله شهرة قديمة فى الملاحة وجوب البحار .

٥ — **العروض** : ويشمل اليمامة والبحرين وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

وليس فى الجزيرة أنهار دائمة الجريان ، ولكنها أودية يتجمع فيها ماء المطر حيناً ويجف حيناً . وأعظم أجزائها صحراؤها التى تتوسطها فتفصل اليمن عن نجد، وتقسم عرب الجزيرة إلى عرب الشمال وعرب الجنوب .

عرب الشمال

وعرب الشمال فى الغالب بدو يعيشون فى بيوت الشعر فى الحجاز ونجد وما جاورهما ، تحيط بهم الصحراء ، ويعيش أكثرهم عيشة القبائل الرحل ، يتربصون مواسم الغيث ، فيخرجون فى طلب المرعى ، لا يبذلون جهداً عقلياً فى تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر ، وإنما يعتمدون على ما تخرجه الأرض وتجود به السماء . وليس هذا النوع من الحياة بالذى يرقى بأهله ويسلمهم إلى الحضارة ، إنما يسلم إلى الحضارة عيش القرار والاطمئنان ، واستخدام العقل فى تنظيم شئون الحياة . وهم يتكلمون العربية الخالصة ، التى هى فى جملتها أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية .

وهؤلاء ومنهم الأنباط[1] وأهل تدمر[2] هم المعروفون بالعرب المستعربة ، أو العدنانيين من نسل عدنان الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ، ويسمون أيضاً مضَرِيَّةً ، ونِزارِيّة . ومَعَدِّيَّة[3]

عرب الجنوب

أما عرب الجنوب فأغلبهم من الحضر الذين يقيمون فى اليمن وحضرموت وعلى طول الساحل المجاور ، وكانوا قديماً يتكلمون لغة سامية تخالف لغة الحجاز فى أوضاعها وتصاريفها . وهى أكثر اتصالاً باللغة الحبشية . وهم المعروفون بالعرب العاربة أو القحطانيين . وينتسبون إلى يعرب بن قحطان ، وقد كانوا لخصب بلادهم يعيشون عيشة قرار ، وتغلب عليهم الحضارة ، فنشأت فيهم دول قديمة

---

(١) الأنباط : عرب ينتسبون إلى نبايوط بن إسماعيل ، وهم أصحاب مدينة بطرة بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء ، وقد تمدنوا وكانت لهم دولة فى الجاهلية وعاصروا الرومان إبان مجدهم ، وكانت دولتهم فى شبه جزيرة سيناء وما جاورها من جزيرة العرب إلى الحجاز ، وكانوا واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، وبقيت دولتهم إلى أوائل القرن الثانى للميلاد فدخلت فى حوزة الروم . اهـ . جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ١/١٣ .

(٢) تدمر . مدينة عربية فى بادية الشام إلى الشمال الشرقى من دمشق . وقد بلغت أوج ازدهارها وعظمتها التجارية فى القرون الأولى للميلاد ، وحاربت ملكتها زينوبيا (الزباء) الرومان ، ولكنهم قوضوا ملكها فى ٢٧٢ اهـ تاريخ العرب لمبروك ص ١١١ وما بعدها .

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧ – ٣٨ وأحمد أمين : فجر الإسلام ص ٤ – ٥ .

عاصرت الفراعنة . وملوك بابل وآشور ، وأشهرها حِمْيَرَ وسَبَأ وكَهْلان . ومن مدنهم الشهيرة مأرب وسبأ وصنعاء وغيرها[١] «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» .

وهذا التقسيم المتعارف عن حياة عرب الجزيرة وتاريخهم على مدى الأجيال يرجع إلى اختلافهم فى البيئة واللهجات والحضارة وطرق العيش ، وذلك كله أدى إلى اختلاف فى المصالح السياسية التى زادتها المنافسات ، فصار العداء مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين ، حتى رووا أن كلاً منهم اتخذ لنفسه شعاراً فى الحرب يخالف شعار الآخر[٢] .

وليس المقصود بما ذكرنا أن هذين القسمين كانا منفصلين تمام الانفصال ، بل كان الأمر على عكس ذلك ، فهم يحدّثون أن كثيراً من أهل اليمن رحلوا إلى بلاد الحجاز قبل الإسلام عندما انهار سد مأرب . وقليل من أهل الحجاز رحلوا إلى اليمن حين ضاقت بهم بلادهم .

وقد تفرع من عدنان فرعان كبيران ربيعة ومضر .

فمن أشهر قبائل ربيعة . أسد ، ووائل ومنه بكر وتَغْلِب ، ومن بكر بنو حنيفة باليمامة . وأما مضر فأشهر قبائلها قيس التى منها هوازن وسُلَيْم بالجانب الغربى من نجد . وغطفان التى منها عبس وذبيان . ومن مضر كذلك تميم ، وكانت تسكن بادية البصرة . وهُذَيل بالقرب من مكة ، وكنانة فى جنوبى الحجاز ومنها قريش .

ونسل قحطان شعبين عظيمين : كَهْلان وحِمْيَر .

أما كهلان فتفرع منه فروع كثيرة أشهرها :

١ — طيئ فى جبلى أجأ وسَلْمَى .

٢ — هَمْدان ومَذْحِج وأغلبهم ظل فى اليمن ، وإلى مَذْحِج ينتسب بنو الحارث الذين سكنوا الجنوبى الشرقى للطائف .

٣ — عاملة وجذام ، وكانوا يسكنون بادية الشام ، ولخم التى أسست ملك الحيرة ، وكندة التى حكمت حَضْرَمَوْتَ وإليها ينتسب امرؤ القيس .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ١/٩ . أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٥ — ٦ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٧ .

٤ ــ الأزْد ــ وقد حكموا عُمان فى الجنوبىّ الشرقى من الجزيرة ؛ ومنهم الغساسنة الذين أسسوا ملكهم شرقى الشام ، وخزاعة التى غلبت على مكة قبل قريش ، والأوس والخزرج سكان يثرب .

وأما حمْير فأشهر قبائله .

١ ــ قضاعة وكانت تسكن شمالى الحجاز .

٢ ــ تنوخ وقد نزلوا قديماً شمالى الشام .

٣ ــ كَلْب وكانوا يسكنون بادية الشام .

٤ ــ جهَينة وعُذرة . وقد نزلوا وادى إضَم بالحجاز [١] .

أحوال العرب الاجتماعية

تقدم أن عرب الجزيرة كانوا بدواً وحضراً ، والبدو أكثر عدداً ، وأن السواد الأعظم من أهل الشمال بدو رحل [٢] ، وهم خمسة أسداس أهل الحجاز ، وفى شماليه تعد الواحات القليلة المتفرقة العماد الوحيد لحياة الاستقرار [٣] . ولم يكن البدوى جوّاب آفاق يضرب فى الأرض على غير هدى ، ولكنه كان مثلاً حسناً للإنسان يلائم بينه وبين بيئته ، ويتشكل بشكلها ، فهو ابن الصحراء ، ورفاقه فيها الإبل والنخيل والرمال . كان يسعى فى طلب الكلأ ، ويتتبع مساقط المطر ــ وكان على حق حينما سماه غيثاً ــ ويعيش على نتاج ماشيته ، يأكل لحمها ويشرب لبنها ويلبس صوفها ، ويتخذ منه بيته ، وقد عصمته الصحراء من غزو الآراء والعادات والمعتقدات الغريبة عنه ، فقد كانت سوراً يحفظ عليه تقاليده ولغته ودمه العربى ، وكانت خط دفاعه الأمامى ، الذى يقيه خطر العدو الخارجى الزاحف عليه ، لذلك لم يخضع البدوى لسلطان أجنبى [٤] .

كان رعى الأنعام والصيد والغارات أهم ما يشغل البدوى ، أما الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها فكان يحتقرها . ولباسه كطعامه لا يفى بحاجته . وأعظم فضائله

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨ ، ٩ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ١٠٣ .

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٢١ .

(٤) حتى : تاريخ العرب ص ٢٩ .

الصبر والجلد، والنزعة الفردية متأصلة فيه . فلم يرتفع إلى مستوى الإنسان الاجتماعى ، ولم يحاول أن يروض نفسه على اعتناق المثل العليا التى تعمل لصالح المجموع ، إلا إذا دعته إلى ذلك العصبية لقبيلته . قال أعرابى وهو يصلى : « اللهم ارحمنى وارحم محمداً ، ولا ترحم أحداً سوانا »[١] والمثل الأعلى لعرب البادية فى الأخلاق هو المروءة ، التى ما فتىء الجاهليون يتغنون بها فى شعرهم ، والتى يرونها متمثلة فى الشجاعة والنجدة والكرم . وقد طبعتهم البادية على البأس والخشونة والاعتماد على النفس ، وأصلت فيهم الأنفة وحماية العرض والجار ، والذود عن الحمى ، والثأر ممن بغى ، والاستجابة للصريخ ، ونصرة العشيرة .

وكأن شعورهم بالضعف أمام طبيعة عنيدة عابسة عاتية قد ولّد فيهم الشعور بالحاجة إلى التضامن والنهوض بواجب الضيافة ، فى أرض ليس فيها نزل ولا فنادق ولا خانات[٢] ، وقد دعاهم الكرم إلى السخاء فى البذل ، ولما كانت بلادهم مجدبة لا تسعف حاجات الكريم ، اتجهوا إلى أهل العراق والشام واليمن يستعينون بما يكسبون منهم على جدب أرضهم وشدة حالهم[٣] . ولا يخضع البدو لقانون ، وليس فى طبعهم النظام ، حتى أصبح الغزو والغارات نظاماً قومياً ، ومهنة من مهن الرجال المعروفة ، حتى القبائل المسيحية كبنى تغلب لم تجد من عقلها وازعاً يردها عنه[٤] . وكانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العشب ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النُّجْعة ، وكثيراً ما انتهى الأمر بهم للاحتكام إلى السيف ، فكانت القبيلة تغير على عدوها ، ويغير عليها عدوها ، فينهبون المال ويَسْبُون النساء والأولاد ، فإذا لم يجدوا عدواً من غيرهم يغيرون عليه تقاتلوا فيما بينهم . ولعل أصدق ما يصور حياتهم هذه ما قاله القَطَامى[٥] :

فمَنْ تَكُنْ الحضارةُ أَعْجَبَتْــهُ فأَىَّ رجالِ باديةٍ ترانا ؟

---

(١) سنن أبى داود ١/٨٩ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠ .
(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٣١ .
(٤) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢ .
(٥) القطامى من شعراء العصر الأموى .

ومَن رَبَط الجحاشَ فإنَّ فينا قَناً سُلْبًا وأفراساً حِسانا[١]
وكُنَّ إذا أَغَرْنَ على قَبيلٍ فَأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيثُ كانا[٢]
أَغَرْنَ من الضِّبابِ على حِلالٍ وضَبَّةَ إنه مَنْ حان حانا[٣]
وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا ما لم نَجِدْ إلا أخانا

لذلك كانت القبيلة الضعيفة والحضر المقيمون على أطراف البادية يلجئون إلى محالفة قبيلة قوية يشترون منها حمايتهم[٤] ، وكانت القبيلة فى الحياة الجاهلية أشبه شيء بالدولة اليوم . وكان عرفها وتقاليدها هو قانونها المقدس ، وشعاورها حرية طليقة من كل قيد ، وكان بين أفرادها من التضامن بقدر ما يتعرضون له بحكم الطبيعة من خطر مشترك ، فكان همهم إشاعة رهبتها بين القبائل ، وإعظام شأنها ، وبسط نفوذها على غيرها . كان أفراد القبيلة متضامنين أشد تضامن ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم :

لا يسألون أخاهم حينَ يَنْدُبُهُمْ فى النائبات على ما قال برهانا

كانوا يعدون أنفسهم أبناء دم واحد ، يخضعون لرئيس واحد هو أسن زعمائهم ، ويتداعون إلى الحرب بصيحة واحدة ، ويضيفون كلمة « بنى » إلى اسم واحد يجمعهم ، وتدل الأسماء المؤنثة التى ينتسب إليها بعض الأقوام على بقايا نظام الأمومة السابق[٥] .

فإذا جنى أحدهم جناية فى قومه لم يجد من يحميه ، فإذا فرّ عُدَّ طريداً ، وإذا جناها فى غيرهم حملت القبيلة جنايته ، وأصبح كل واحد منها هدفاً للقصاص . وإذا غنم غنيمة فهى لها ، ولرئيسها خيرها ، فإذا أبى قومه حمايته لجأ إلى قبيلة غيرها تحميه ، وحسب نفسه كأحد أبنائها ، فوطنية البدوى قَبَلية لا شعبية[٦] .

---

(١) قنا : جمع قناة وهى الرمح . سلبا : أى طوالا .
(٢) القبيل : الجمع من الناس .
(٣) الضباب وضبة : قبيلتان . الحلال : المجاور المقيم . من حان حان : أى من جاء أجله هلك .
(٤) حتى : تاريخ العرب ص ٣١ .
(٥) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢ .
(٦) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١ .

وهذا الشعور بالارتباط بين الفرد وقبيلته يحميها وتحميه، هو العصبية القبلية .

ويؤكد المؤرخون أن الثأر كان الباعث الأول على كل أيام العرب[١] ، وإن كان الثأر نفسه قد نشأ عن أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وكان طلب الثأر قد يستمر أربعين سنة ، فالقبيلة أبداً طالبة أو مطلوبة ، وهكذا عاش العرب حياتهم واترين أو موتورين ، وقسموا بذلك الدهر شطرين ، كما قال دريد بن الصِّمَّة :

يُغار علينا واترِينَ فيُشْتفَى بنا إن أُصِبْنا ، أو نُغيرُ على وِتْر[٢]

قَسَمْنا بذاكَ الدهرَ شَطْرَينِ بيننا فما يَنْقضي إلا ونحنُ على شَطْر

أيامهم

فليس بغريب أن يقال إن أبا الفرج الأصبهانى قد استقصى أيام العرب حسب إمكانه ، فى كتاب أفرده لذلك ، فكانت سبعمائة وألف يوم[٣] . فتاريخ البدو فى غالبه سجل للحروب المعروفة عندهم بأيام العرب ، التى كانت تشيع فيها الغارات والنهب .

ومن هذه الحروب ما كان بين القحطانيين والعدنانيين ، ومنها ما كان بين قبائل ربيعة ، ومنها ما كان بين قبائل مضر ، ومنها ما كان بين قبائل مختلفة .

فقد كان الحجاز ونجد تحت سيطرة الحميريين ملوك اليمن ، يؤدون لهم الخراج ، ويحاربون معهم إذا حاربوا ، فلما فتح الأحباش اليمن بمساعدة قيصر الروم سنة ٣٤٥ م[٤] .ذهبت هيبتها من نفوسهم ، وفكروا فى الخروج عليها ، وأحسوا حاجتهم إلى الاتحاد ، وبدت منهم بوادر التمرد ، فقمعها ولاة اليمن ، حتى ولى أمر ربيعة كليب وائل التغلبى فى أواخر القرن الخامس ، فجمع معَدّاً تحت لوائه ، وحاربوا اليمن فى معركة عرفت بيوم خُزَاز ، فهزموهم واستقلوا[٥] ،وولوا عليهم

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٣ .

(٢) واترين : أى مصيبين غيرنا فلهم ثأر عندنا والمصاب موتور . الوتر : الثأر .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب ٢/٦٨ .

(٤) جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٢٧ .

(٥) خزاز : جبل بطخفة ما بين البصرة إلى مكة . ابن الأثير : الكامل ١/١٨٦ .

كليباً ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته[١] .

وكان استقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرة اليمن انقلاباً سياسيًّا ، أيقظ فيهم ما فطروا عليه من عزة النفس وإباء الضيم ، وهاج شاعريتهم ، ولكنه أتاح لطبائعهم الأخرى أن تتحرر وتنطلق ، بعد أن أفلتت من قيود الاستعمار اليمنى ، فاختلفوا فيما بينهم وتنازعوا أمرهم ، فكانت بينهم حروب كثيرة[٢] .

ومن أقدمها وأشهرها حرب البسوس ، التى دارت معاركها فى نهاية القرن الخامس الميلادى فى ربيعة بين بكر وتغلب ابنى وائل ، فى الشمالى الشرقى من بلاد العرب ، وكلاهما على المسيحية ، وكان سببها أن ناقة لامرأة من بكر اسمها البسوس وردت الماء مع إبل لكليب بن ربيعة التغلبى ، فرمى ضرعها بسهم ، فراحت ترغو على صاحبتها ، فذهبت إلى ابن أختها جساس بن مرة البكرى ، فأحمسته بكلامها حتى خرج على كليب فى غِرة فقتله ، فوقعت الحرب ، وتشمر مهلهل[٣] بن ربيعة للأخذ بثأر أخيه ، واستمرت هذه الحرب أربعين سنة على ما قال الرواة ، ما تهدأ إلا لتبدأ ، وكانت الغارة فيها بين الرجلين والثلاثة . وقد أججّ الشعراء أوارها بشعرهم وتحريضهم ، وكان من أشهر وقائعها يوم الذنائب ، ويوم تحلاق اللِّمَم .

ولمُهَلْهِل التغلبى (المتوفى حوالى ٥٣١) والحارث بن عُباد البكرى ، وجليلة بنت مرة زوج كليب وأخت جساس شعر جميل فى هذه الحرب التى انتهت حوالى سنة ٥٢٥[٤] .

ولا يقل عن هذه شهرة حرب داحس والغبراء فى مُضَر ، بين عبس وذُبْيان من غَطَفَان فى وسط الجزيرة ، وكانت فى النصف الثانى من القرن السادس ، وداحس فرس لقيس بن زهير العبسى ، والغبراء فرس لحَمَل بن بدر . وكان الذى هاجها أن قيسا وحملا تراهنا على فرسيهما ، ثم اختلفا فى السبق وتشاحنا ، وانتهى الأمر بالحرب التى ظلت تنشب بين فترة وأخرى حتى جاء الإسلام ، وكان للشعراء فيها أثر مذكور ، ومن أشهر أيامها يوم المُرَيْقِب ، ويوم ذى حِسَى من أرض

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب اللغة العربية ١/٥٨ .

(٢) جاد المولى وآخرون : أيام العرب ص ١٠٩ .

(٣) اسمه عدى .

(٤) حتى : تاريخ العرب ص ١٠٦ . هاشم عطية : الأدب العربى وتاريخه ص ٤٩ — ٥٠ .

الشَّرَبة فى ديار غَطَفان، ويوم الهباءة ويسمى يوم جَفْرُ الهباءة[١] . وفيه قتل حذيفة وحَمل ابنا بدر الفزاريان وعظم الأمر على الناس ، فسعى الحارث بن عوف وهرم ابن سنان بالصلح ، واحتملا ديات القتلى فى أموالهما ، ومن شعرائها قيس بن زهير العبسى وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد العبسى الفارس الشاعر (المتوفى حوالى ٦١٥) الذى جدد عصر البطولة فى أقاصيص اليونان[٢] .

ومن حروب مضر أيضاً يوم اللوى لفزارة على هوازن ، قتل فيه عبد الله بن الصمة وأثخن أخوه دُرَيد .

ومن أعظم أيام العرب وأكثرها جموعاً يوم شِعب جبلة ، وكان لعامر وعبس على ذبيان وتميم ، وكان قبل الإسلام بنحو أربعين سنة ، وفيه قتل لَقيط بن زُرارة التميمى وأسر أخوه حاجب ، كما قتل معاوية بن الجَوْن الكلبى ملك هجر ، فرثت دختنوس أباها لقيطاً ، وخلد جرير ذكر ذلك اليوم فى شعره[٣] .

ومنها أيام الفِجار وهى أربعة ، وفيها كانت قريش ومن معها من كنانة على هوازن ، وسميت بذلك لأنها وقعت فى الأشهر الحرم[٤] . وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم وهو فتى إحدى هذه الحروب ، قال : « كنت أنبُل[٥] على أعمامى وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

ومنها حروب الأوس والخزرج سكان يثرب ، وكان آخرها يوم بُعاث قبل الهجرة ببضع سنوات[٦] .

مجتمعاتهم .

وكان لقريش ومن إليهم من أهل الحجاز رحلتان ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى بصرى بأرض الشام ، وأما أهل اليمن وعُمان والبحرين فكانت تجاراتهم كثيرة لما فى بلادهم من الخصب والرخاء والمعادن وغيرها من أسباب الثروة ،

---

(١) الجفر – البئر الواسعة أو هى مستنقع فى ديارهم .
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ١٠٧ – هاشم عطية : الأدب العربى وتاريخه ص ٥١ – ٥٣ .
(٣) هاشم عطية : الأدب العربى وتاريخه ص ٥٤ .
(٤) وهى عندهم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .
(٥) أنبل : أناولهم النبل .
(٦) حتى : تاريخ العرب ص ١٠٦ .

وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم ثروة وتجارة لأن الغالب على أرضهم الرمال .

وكان للعرب أسواق يقيمونها فى شهور السنة ، وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب ، منها دُومة الجَنْدل وهَجَر وعُمَان والمُشَقَّر بالبحرين ، وصنعاء ، ومجنة قرب مكة ، وذو المَجَاز قرب عرفة ، وعُكاظ [١] ، وهى أعظم مواسمهم وأسواقهم بالحجاز ، فكانوا يتبايعون ، ويفتدون الأسرى ، ويتحاكمون فى الخصومات ، ويتفاخرون ، وينشد الشعراء ما تجدد لهم ، ويخطب كل مِصْقع من خطبائهم ، كقس بن ساعدة ، وكان من أشهر المحكمين فيها بين الشعراء النابغة الذبيانى [٢] .

وكان لهم إلى جانب هذه الأسواق مجتمعات ، منها ما يقام لمحض الأنس والسمر ، يتذاكرون بها ما سلف من أيامهم ، ويتناشدون غرر أشعارهم ، ومنها ما كان للمشاورة فى الحرب والغارة أو تدبير أمر القبيلة ، ومنها ما كان لطلب الاتعاظ ، كما كانت تجتمع قريش إلى كعب بن لؤى جد النبى فيخطبهم ويعظهم ، ومنها ما كان لحلف أو عقد عهد ، كما اجتمعت قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان فتحالفوا على رد المظالم بمكة ، فكان حِلْفُ الفُضُول ، وكما اجتمع بنو عبد مناف ومن تبعهم ، وبنو عبد الدار ومن تبعهم فى حلف المطَيَّبين [٣] والأحلاف ، على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، وتكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار [٤] .

المرأة

كانت المرأة البدوية تشارك الرجل فى شئون الحياة . ولكنها لا تغنى غناءه فى الحرب ، والحرب أساس حياتهم ، فانحطت لذلك منزلتها عن منزلته . ولكنها كانت تتمتع بقسط من الحرية يُربى على الحضرية . كانت حرة فى اختيار

---

(١) عكاظ : نخل فى واد بين مكة والطائف .

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

(٣) سمى بنو عبد مناف ومن معهم مطيبين لأنهم حين تعاهدوا أكدوا العهد بأن غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة طيباً ومسحوا بها الكعبة .

(٤) الألوسى : بلوغ الأرب ١ / ٢٧٠ وما بعدها .

زوجها ، وفى الطلاق إن أساء عشرتها[١] ، وكان بعض القبائل يئدون البنات خشية العار ، وفيهم قول الله : « وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم ، يَتَوارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سوءِ ما بُشِّرَ به ، أَيُمْسِكُه على هُونٍ أَم يَدُسُّهُ فى التراب . أَلاساءَ ما يَحْكُمُون » .

وكانت نساء الجاهلية يصحبن الرجال إلى ساحات القتال ، يحملن الماء ، ويداوين الجرحى ، ويحرضن الرجال ، وممن اشتهرن بالشجاعة وكبر النفس سلمى بنت عمرو إحدى نساء بنى عَدِىّ بن النجار ، وعمرة بنت علقمة الحارثية ، وهند بنت عُتبة زوج أبى سفيان بن حرب ، ونَسيبة بنت كعب الأنصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، واشتهرت التيميّات من قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم[٢] . وكان لخديجة بنت خويلد رأى وحزم ، وكانت ذات شرف ومال ، تستأجر الأمناء الخبراء فى الاتجار بمالها ، وكانت وزير صدق للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأكبر عون له على ما يلقى من عنت المشركين حين جهر بدعوته .

وكان للمرأة فى الجاهلية شأن فى الشعر والأدب ، فهناك عشرات من الشواعر ، ذهبت أشعارهن إلا قليلا جاءنا فى بعض الأخبار ، منهن كبشة أخت عمرو ابن معد يكرب ، وجليلة بنت مرة زوج كليب وائل ، وميسة بنت جابر امرأة حارثة ابن بدر ، والخنساء بنت عمرو السلمية الشاعرة ، وخرنق بنت بدر ، وليلى العفيفة ، وأميمة زوج ابن الدمينة الشاعر ، وغيرهن . وكان أبو نواس يروى لستين شاعرة من العرب . ومنهن من بلغ من شأنها أن يحتكم إليها فحول الشعراء ، كأم جُندب زوج امرئ القيس ، حكّمها زوجها بينه وبين علقمة الفحل ، فحكمت حكماً دل على ذكاء ومعرفة وبصر ، وكان من الخطيبات هند ابنة الخس ، وجمعة بنت حابس[٣] .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٦ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٣١ .

(٣) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٣٢ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

الدين

والممعن فى البداوة من العرب ضعيف الإيمان بدين ، دينه الذى يتبعه تقاليد قبيلته ، وعرف جماعته ، وما وجد عليه آباءه ، وإنما كانوا يقدسون الأحجار والأشجار والينابيع ، ويعبدون الأوثان والأصنام ، وقدقال الله فيهم : «الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْرًا ونِفَاقاً ، وأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ على رَسُوله واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . وكانوا مع ذلك يقرون بالخالق النافع الضار . «ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ » ويزعمون أنهم يتقربون إليه بعبادة تلك الأصنام . « ما نَعْبُدُهم إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللهِ زُلْفى » . ولكن ليس فى التاريخ دليل على إخلاصهم لما كانوا يعبدون ؛ فقد خرج امرؤ القيس فى طلب الثأر من قتلة أبيه ، فوقف عند معبد ذى الخلَصَة ليستقسم بالأزلام ، فلما خرج سهم النهى ثلاث مرات قذف بالسهام المحطمة فى وجه الصنم صائحاً : « أيها الملعون ، لو أن أباك هو الذى قتل لما نهيتنى عن الثأر له[1] » .

ولم يكن لهم فى وثنيتهم معتقدات أو أفكار دينية راقية ، ولا علم بخلق العالم يقاس إلى ما كان عند البابليين[2] . وكان مما عبدوا (سُوَاع) لهذيل و (يَغُوث) لمذحج و (يَعُوق) لخيوان باليمن و (نَسْر) لحمير و (وُدّ) للمعينيين و (اللات) بالطائف . وكانت قريش والعرب تعظمها ، و (العُزَّى) بواد من نخلة الشامية ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، و (مناة) أقدم أصنامهم على ساحل البحر بقُدَيد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعاً تعظمها وتذبح حولها ، وكان أشدهم إعظاماً لها الأوس والخزرج ، وكان العرب يسمون هذه الثلاثة بنات الله ، وكان (هُبَل) أشهر الأصنام المنصوبة فى الكعبة على هيئة آدمى ، وأمامه السهام التى يستقسمون بها[3] . ومنهم من عبد الشمس أو القمر أو الملائكة أو الجن أو النار .

وكان فى الجزيرة إلى ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فتهوَّد كثير من

---

(١) الأغانى ١ / ٧٠ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ١١٦ .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب ٢ / ٢٠٠ — حتى : تاريخ العرب ص ١١٨ — ١٢١ .

قبائل اليمن ، وحماهم ذو نواس أحد التبابعة[١] ، واضطهد النصارى ، وكان لليهود مستعمرات فى يثرب وخيبر وتيماء وفدك ووادى القرى . واشتهروا بالزراعة والصناعة ، وكان لهم أثر كبير فى اللغة العربية ، فأدخلوا فيها كلمات كثيرة ، ومصطلحات دينية لم يعرفها العرب من قبل ، مثل جهنم وإبليس والشيطان وغيرها ، وكانت اليهودية متأثرة بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً عندما دخلت جزيرة العرب[٢] .

أما النصرانية فقد تسرب إلى الجزيرة منها فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة ، وكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسّان والشام ، كما كانت فى ربيعة وقضاعة ، وكان بنو تغلب نصارى[٣] . وكان أهم موطن للنصرانية بين العرب نجران ، وكان بها بيعة بناها بنو عبد المَدَان بن الدَّيَان الحارثى على نسق بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها . وسموها كعبة نجران .

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ، ويعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، وكان شأن النصرانية كشأن اليهودية تحمل فى ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية[٤] .

التجارة

وكان الحضر — وأغلبهم من أهل الجنوب ، وبعضهم من المدن القليلة فى الشمال — يعيشون على التجارة والزراعة ، ولهم معرفة ببعض الصناعات وكانوا يسكنون المدن ، وقد أسسوا ممالك قبل الإسلام فى اليمن والشام والعراق .

وكانت حضارة الجنوب وخصبه سبيلا إلى ارتباطه بمن حوله أدبيًّا وماديًّا ، فقد كانت جزيرة العرب طريقاً عظيما للتجارة ، تنقل غلاتها إلى الشام ومصر ، وأهمها المنسوجات والعطور والبخور والتوابل التى تكثر فى الجنوب ، أو تنقل غلات

---

(١) التبابعة : ملوك اليمن .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٨ و ٢٩ .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب ٢/٢٤١ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٩ — ٣٣ .

بعض الممالك إلى البعض الآخر . لأن طريق البحر لم يكن طريقاً مأموناً .

وكان فى جزيرة العرب طريقان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى ، أحدهما يسير من حضرموت شمالا إلى البحرين على الخليج الفارسى ثم إلى صُور ، والآخر يسير من حضرموت محاذياً البحر الأحمر إلى بطرة شمالا ، وفى منتصف هذا الطريق تقع مكة .

وقد فتحت التجارة باباً كبيراً للرزق أمام العرب . فمنهم من اتجر ، ومنهم من كان يصحب القوافل سائقاً أو حارساً أو دليلا .

وكانت التجارة من قديم فى يد اليمنيين ، فلما انحط شأنهم انتقل زمامها إلى عرب الحجاز فى القرن السادس الميلادى . واتسع نطاقها حتى كانوا يشترون سلع اليمن والحبشة ثم يبيعونها فى أسواق الشام ومصر ، وجعلوا مكة قاعدتهم التجارية . ووصلوا قبيل الإسلام إلى درجة عظيمة . جعلت الروم فى كثير من شئونهم يعتمدون على تجارة مكة[1] . وقد بلغ من شهرة مكة التجارية — وقريش أعظم أهلها — أن قالوا « إنها إنما سميت قريشاً لأنهم كانوا يتقرشون المال أى يجمعونه بالاتجار[2] » وكان عرب الحيرة يحمون قوافل التجارة الفارسية عند مرورها ببلاد العرب فى مقابل جعل كبير ، فأبى الفرس مرة دفع هذا الجعل ، فهجم العرب على القافلة وهزموا رجالها ، فى يوم يفخرون به ويعدونه نصراً لهم على الفرس . هو يوم ذى قار .

ولا شك فى أن العرب قد استفادوا فوق الفائدة المادية التجارية فائدة معنوية أدبية من مدنية الروم والفرس وأدبهم . فالرحلات إلى الأمم المتحضرة تضع أمام الراحلين حضارة تلك الأمم ومدنيتها . يأخذون منها قدر طاقتهم ، وهذا شأن الأمم حتى فى أيامنا هذه . فلابد أنهم نقلوا بعض عاداتهم وألفاظاً من لغتهم ، وعرفوا نظام معيشتهم وحكومتهم . وبخاصة أن تجار العرب كان من بينهم من عرفوا بالسيادة والحكمة والعقل ، كأبى سفيان بن حرب . وسَحْرَمة بن نوفل ، وعمرو ابن العاص وغيرهم . وقد تأكد ذلك بما دخل اللغة العربية من كلمات فارسية ورومانية ومصرية وحبشية ، فصارت جزءاً منها وخضعت لقوانينها[3] .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٥ .

(٢) لسان العرب .

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٥ — ١٧ .

العقلية العربية

طبيعتها

ذكرنا أن أكثر العرب فى جاهليتهم كانوا بدواً ، وطور البداوة طور اجتماعى طبيعى ، تمر به الأمم فى أثناء سيرها إلى الحضارة .

ويحسن هنا أن نلخص وصف الدكتور أحمد أمين للعربى الجاهلى . عقله وخلقه ، فهو وصف دقيق سديد .

« العربى عصبى المزاج ، سريع الغضب ، يهيجه الشىء التافه ، ثم لا يقف فى هياجه عند حد ، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته ، فإذا هاج أسرع إلى السيف ، واحتكم إليه ؛ والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، ويظهر ذكاء العربى فى لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديهته ، فما هو إلا أن تفجأه بالأمر فيفجأك بحسن الجواب ، ولكن ذكاءه ليس من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة ، فيبهرك تفننه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله . خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله حياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف « المثل الأعلى » ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة تدل عليه ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب[1] .

كان ينظر إلى الأشياء نظرة سطحية جزئية ، لا نظرة عميقة شاملة ، فلا يحسن تعليل الحوادث ، ولا يربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، شأن الأمم فى طور نشوئها ، وإذا نظر إلى الشىء الواحد لم يستغرقه بفكره ، بل يقف منه على مواطن خاصة تثير عجبه ، فإذا وقف أمام شجرة لم يستوعبها اهتمامه ، إنما يسترعى انتباهه شىء فيها ، كاستواء ساقها ، أو جمال أغصانها ، وإذا كان أمام بستان لم يحطه بنظره ، ولم يلتقطه ذهنه كما تلتقطه المصورة ، إنما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة إلى زهرة ، فيرشف من كل رشفة .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٤٤ .

وهذه الخاصية فى العقل العربى هى السر فيما نرى فى أدب العربى من نقص ، وما نرى فيه من جمال ، فأما النقص فتشعر به حين تقرأ قطعة أدبية ، فى ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار تسلسلا دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت إلى القصيدة فحذفت منها أبياتاً ، أو قدمت بينها أو أخرت ، لم يكد ذلك يبين ، وهذا النوع من النظر هو الذى قصر نفس الشاعر العربى ، فلم يستطع أن يأتى بالقصائد القصصية الوافية . أما الجمال فمنشؤه أن ذلك النظر حين انحصر فى شىء جزئى خاص استطاعوا أن ينفذوا إلى باطنه ، فأتوا بالمعانى المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فحفل أدبهم بالحكم القصار ، والأمثال الحكيمة . وذلك طور طبيعى نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التى عاش فيها العرب ، يشترك معهم فيه كل أمة تحيا حياتهم ، وتعيش عيشهم . فقد كانت طبيعة الصحراء قاسية جافة فقيرة بخيلة لا تتنوع مظاهرها ، ولا تتجدد مناظرها ، ولا تتسع الحياة فيها إلا للقليل من النبات والحيوان والإنسان ، وابن الصحراء يواجه الطبيعة فيعرف ألوانها ويألفها ، وتتأثر بها نفسه ولغته ، فالسكون المخيم على الصحراء ، وانبساط رقعتها ، وصفاء سمائها ، وشمسها وقمرها ، وليلها ونجومها ورياحها ، كلها تملأ النفس روعة ، وتكسبها صفاء ، وترهف حسها ، وتشيع فيها روحانية وشاعرية دفاقة . وللصحراء موسيقى ذات نغمة متكررة ، رهيبة عابسة ، لذلك استولى على أهلها نوع من الوحشة والكآبة والوجد ، وتغنى شعراؤها بلون من القول ، يرددون به ما تلهمهم من شعر ، وما توقعه على نفوسهم من لحن .

وهذا شأن لغتهم ، فالألفاظ فى غاية السعة والدقة إذا كان ما وضع له اللفظ من ضرورات الحياة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة فى غير ذلك ، فلما كانت الإبل عماد حياتهم ، وضعوا لها ولكل ما يتصل بها من الألفاظ ما يملأ كتاباً ، وكذلك أفاضت اللغة فيما يخص الخيل والسلاح والرمال والمرتفعات والمنخفضات والرياح والكلأ والهوام والحشرات . أما البحار والأمواج والسفن والسمك والأصداف وعالم الماء فليس له فى اللغة مكان واسع .

والأمر كذلك فى المعنويات . فكلمات السرور واللهو واللعب والمزاح ، أقل من كلمات البؤس والشقاء والحزن والويل والفاقة والقتال ، لغلبة الفقر والشقاء ،

وذلك حكم الطبيعة وأثر البيئة .

كان إقليمهم طليقاً . كل شيء فيه يحيا حراً على الفطرة[١] . فعاشوا ككل ما حولهم . لا يقيدهم قيد . ونزعوا إلى حرية لا يحدها حد ، لا يدينون لحاكم ، ولا يخضعون لقانون . وكانت حياتهم مسرحاً لحروبهم .

والعربي يحب المساواة في حدود قبيلته . ولكنه في خارج حدودها نزاع للسيادة ، يرى أنه من دم ممتاز . وكأنه جمع بين برديه أعلى مثل للإنسان . والأمة العربية عنده أعظم الأمم . وأجلها شأناً . لم يؤمن بعظمة الفرس والروم على ما بينه وبينهم من فرق بعيد في العلم والحضارة . حتى إذا فتح بلادهم نظر إليهم نظرة السيد للمسود . وهو يفخر فخراً متطاولا بنقاء دمه . وفصاحته وشعره . وسيفه وجواده ، وشرف نسبه . ويصله أحياناً بآدم . لذلك ارتقت معرفة الأنساب عندهم إلى مرتبة العلم الصحيح[٢] .

حياة العرب العقلية ومظاهرها

تبين مما تقدم ما كان من أحوال العرب الاجتماعية والطبيعية ، وأثرها في عقليتهم ، كما ذكرنا الصلات الأدبية والمادية التي كانت لهم بمن حولهم عن طريق التجارة ، وأهل الديانات من يهودية ونصرانية ؛ والممالك المتحضرة المحيطة بهم ، وما كان لتلك الصلات من أثر فيهم . وقد تفاعل هذا الأثر مع عقليتهم وأحوالهم النفسية ، فنشأت لهم حياة عقلية . تمثلت في لغتهم وأدبهم من شعر وحكم وأمثال وقصص . ومع ما كان لهم من معرفة بالأنساب والأخبار ، والطب والبيطرة والفلك والأنواء ؛ فإن أدبهم كان معظم ثروتهم ، وكان الشعر جل أدبهم ، ولذلك أسباب .

شاعرية العرب

قدمنا أن العربي مرهف الحس ، شاعري النفس ؛ فيه أريحية ونجدة ، سريع الغضب ، شديد الطرب ، فيه ذكاء ، وفيه بديهة وارتجال ، ومن كان هذا شأنه لم يلبث إذا جاش صدره بالمعنى أن يرسله قولا ، ويصوغه شعراً .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين فجر الإسلام ص ٤٤ — ٤٥ . حتى : تاريخ العرب ٣٥ — ٣٦ .

وقد ساعد على ذلك اتساع لغته ، وكثرة مترادفها فيما يقع تحت حسه ، وفى دائرة فكره ؛ فسهل عليه النظم وأسعفته القوافى .

وكان لبيئتهم ، ونمط حياتهم ، وبعدهم عن مشاغل الحضارة ، ومواجهتهم الطبيعة ، وفراغهم للتأمل والنظر فى الوجود ، إلى ما كان بينهم من منافسة ومطاولة وحروب ، أثر فى صقل مواهبهم ، ونضوج شاعريتهم[1] .

نهضة الشعر

وكان استقلال عرب الحجاز ونجد عن عرب اليمن فى أواسط القرن الرابع — على ما سبق — انقلاباً سياسيًّا خطيراً ، حرك شاعريتهم ، كما أثار شاعريتهم أيضاً ارتداد الأحباش عن غزو مكة عام الفيل ، وما كان بعده من حروب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس ، فكثر شعر الحماسة والفخر ، وتباهى الفرسان بصنيعهم فى الحرب ، وقرنوا ذلك بما تدعو إليه الفتوة من ذكر الحب والغزل وتبريح الشوق ، وكثر كذلك رثاء القتلى ، ومدح أصحاب المآثر ، ولم يخل الشعر من حكمة أو موعظة حسنة[2] .

والشعر من الآداب الرفيعة ، يصور الأشياء خيالاً وقولاً ، ويعبر عما فى النفوس لفظاً جميلا ، ونغماً مستقيما ، فهو لغة الروح والنفس ، وصنو الموسيقى والرسم .

وأصل مادته شَعَر ، ومعناها علم ، تقول : ليت شعرى ما يكون غداً ، أى ليت علمى شامل ما يكون غداً ، وقال تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » أى ما يدريكم ، وفى لسان العرب « شعر بكذا فطن له » وفيه « والشعر منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً » وفى اللسان أيضاً « قال الأزهرى الشعر القريض المحدود بعلامات لا يتجاوزها والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أى يعلم » فالمادة كلها معناها العلم والمعرفة ، وعلى ذلك فالشاعر عندهم هو العالم ، والشعراء هم العلماء ، ثم خصصوا الشعر بهذا النوع من القول .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/٥٧ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/٥٨ — ٦١ .

منزلة الشاعر

ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان الشعراء من أرقى الطبقات عقلا ، وأكثرهم علماً، وأبعدهم إحاطة بتاريخ قومهم ، ومفاخر أنسابهم ، وأعرفهم بحقوقهم ، ومواطن كلئهم ، وخطوط حدودهم ، وأبصرهم بمثالب أعدائهم ، وأقدرهم على الافتنان فى القول ، وإصابة الغرض . وكان إذا نبغ فى القبيلة شاعر سموه شاعر القبيلة ، وقدمت وفود القبائل الأخرى فهنأتها به ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج[1] . وما رأوا إلا حقًّا ، فإن ما بقى لنا من أخبار الجاهليين وعلومهم وديانتهم وعاداتهم وآدابهم وأخلاقهم إنما حفظه من الضياع شعرهم ، ولذلك صح قولهم « الشعر ديوان العرب » . وكان الشاعر لسان حال القبيلة ، شأن الصحف اليوم ، وله دور خطير فى الحرب والسلم، يثير الحروب ، وينشر الأخبار، ويدعو إلى الصلح ويجادل الخصوم ، ولهذا كان للشعر أثره فى السياسة والحياة عامة[2] .

وظل الأمر على ذلك زمناً غير قصير ، فكان ممن حمى قبيلته من الشعراء زياد الأعجم ، وذلك أن الفرزدق هم بهجاء عبد القيس ، فبلغ ذلك زياداً — وهو منهم — فبعث إليه : لا تعجل فإنى مهد إليك هدية ، فانتظر الفرزدق الهدية، فجاءه منه هذا الهجاء :

وما ترك الهاجون لى إنْ هَجَوْتُهُ ... مَصَحًّا أَراه فى أَدِيم الفرزدق[3]

ولا تركوا عظماً يُرى تحتَ لحمِهِ ... لكاسِره أَبْقَوْه للمُتَعَرِّق[4]

---

(١) المزهر ٢/٢٩٣ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/٨٣ .

(٣) الأديم : الجلد .

(٤) المتعرق . من يتتبع اللحم على العظم بأسنانه .

سأَكسِر ما أَبقَوْا له من عظامه وأَنكُتُ مخَّ الساقِ منه وأَنْتَقِي[١]
فإنا وما تُهْدِى لنا إنْ هَجَوْتَنا لكا لبحر مهما يُلْقَ فى البحر يَغْرَق

فلما بلغته الأبيات كف عما أراد ، وقال : لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا فيهم .

كما حمى الزبير بن عبد المطلب بنى قصى[٢]

منزلة الشعر

وسبب ذلك كامن فى الطبيعة العربية ، راجع إلى نفوس العرب ، يقول الدكتور فيليب حتى : « كان العرب إذا رأوا الرجل شاعراً فارساً رامياً أطلقوا عليه لقب (الكامل) . وكانوا يرون جمال الإنسان فى فصاحة اللسان ، وقد لا تجد شعباً يتملكه الإعجاب بالقول الجميل ، ويحركه الكلم كالعرب ، وقلَّ أن تجد لغة تستطيع أن تسيطر على عقول أهلها ، وتترك فى نفوسهم أثراً لا يقاوم كاللغة العربية ، وإن جماهير المستمعين اليوم فى بغداد ودمشق والقاهرة لتستثيرهم القصيدة الملقاة إلى أبعد حد ، برغم ما قد يحيط بها من غموض عليهم ، أو الخطبة الفصيحة المرتجلة وإن كانوا لا يفهمون إلا بعضاً منها ، وإن السجع والقافية والموسيقى لتترك فى نفوسهم ذلك الأثر الذى يعبرون عنه بالسحر الحلال .

إن العرب لم يبتكروا ، ولم يرق على أيديهم فن عظيم خاص بهم ، ولكن طبيعتهم الفنية وجدت أحسن تعبير عنها فى وسيلة واحدة ، هى الكلام . ولئن حق لليونان أن يفخروا بعمارتهم وتماثيلهم ، إن العربى ليجد فى شعره أحسن ما يعبر به عن نفسه ويفخر به[٣] » .

كان للشعر ذلك الأثر فى نفوس العرب ، وبلغ من تقديرهم له أن علقوا المعلقات بأستار الكعبة إجلالا لها[٤]؛ فقد كانوا أهل حماسة وخيال ، وكانوا أهل

---

(١) نقوت العظم وانتقيته استخرجت مخه .
(٢) الألوسى : بلوغ الأرب ٣/٨٤ .
(٣) حتى : تاريخ العرب ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٤) العقد الفريد ٢/٩٣ .

حفظ ، فإذا أعجبهم شعر حفظوه وتناقلوه حتى يشيع بينهم ، فيرتفع به الممدوح ويسقط المهجو . وإذا هجا القبيلة شاعر فحل فأصاب منها ثغرة حط هجوه من شأنها . فإذا مدحت فاخرت غيرها ، لا سيما إذا كان مادحها ليس من أبنائها ، وكانت قيس تفخر على تميم ، لأن شعراءها تضرب المثل بقبائل قيس ورجالها ، فأقامت تميم دهراً لا ترفع رءوسها ، حتى قام لبيد العامرى وزبان بن منصور الفزارى — وهما من قيس — فذكرا تميما ومدحاها ، عند ذلك تكلمت تميم وافتخرت [١] .

ومن هنا عظم الشعر ، وتهيب أهله ، خوفاً من بيت سائر تُحدى به الإبل ، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل ، ورجاء فى مثل ذلك ، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح ، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ، ووضع جماعة من أهل السبق والأقدار الشريفة . حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به [٢] ؛ وكان عمر بن الخطاب نفسه يكره أن يتعرض للشعراء . فإذا عرضت عليه خصومة لهم حكّم بينهم شاعراً مثلهم ، وقد اشترى أعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ، ليؤكد بذلك الحجة عليه [٣] .

وكان من سيرورة الشعر وتحكمه فى مصاير القبائل والناس ، يرفع من قدرهم ويضع ، أن حسان بن ثابت هجا بنى عبد المدان بن الديان الحارثى ، فتركهم يستحون مما يفتخر به من طولهم وعظم جسومهم ، ففروا إليه مستغفرين ، فعاد فمدحهم . فأعاد إليهم فخرهم [٤] . وكان بنو أنف الناقة يفرقون من هذا اللقب ، حتى إن الرجل منهم يسأل ممن هو ، فيقول من بنى قُرَيع ، فيتجاوز أنف الناقة ابن قريع ويلغى ذكره . حتى قال فيهم الحطيئة .

قومٌ همُ الأَنفُ والأَذنابُ غيرهُمُ ومَن يُسَوِّى بِأَنف الناقةِ الذنبا

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ، ويمدون به أصواتهم [٥] .

وإن شعر حسان فى بنى جفنة لأسير فى نشر مفاخرهم والتنويه بهم من

---

(١) العمدة ٢ / ١٤٩ .

(٢) العمدة ١ / ٢٤ .

(٣) فوات الوفيات ١ / ٩٩ .

(٤) انظر ص ٢٢٥ من هذا الكتاب .

(٥) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٨٤

كل ما كان لهم من مجد باذخ وملك ، عريض وما خلد ذكر هرم بن سنان شيء كشعر زهير فيه . وما أبقى على الدهر اسم عَرابة الأوسى إلا قول الشَّمَّاخ :

رأيت عَرابةَ الأَوْسِيَّ يسمو إلى العلياء مُنقَطِعَ القَرينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمَجْدٍ تَلقَّاها عرابةُ باليمينِ

جاء الأعشى مكة ، فبادر المحلَّق الكلابى — وكان مئناثاً مملقاً — إلى استضافته ، على رجاء أن يصيبه من مدحه خير ، ونحر له ناقته ، وبالغ فى إكرامه وإكرام رفاقه ، وأحاطت به بناته يخدمنه ويتلطفن به ، فقال : ما هذه الجوارى حولى ؟ قال بنات أخيك ، وهن ثمان ، فغدا الأعشى على عكاظ ينشد الناس قصيدته التى مطلعها :

أَرِقتُ وما هذا السهاد المُؤَرِّقُ وما بِيَ من سُقْم وما بِيَ مَعْشَق

إلى أن قال :

لَعَمْرِى لقد لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفَاع تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لمقْرورَين يصْطَلِيانها وبات على النار النَّدَى والمُحَلَّقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه . والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً ، يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس واحدة منهن إلا فى عصمة رجل خير من أبيها ألف ضعف[1] .

ولما قصد الأعشى النبى صلى الله عليه وسلم مادحاً ، جمع أبو سفيان رجال قريش . فقال لهم : « والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل » ففعلوا ، ورصدوه على طريقه ، وعرضوا عليه الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده[2] .

وقد ضيع بنى العجلان قولُ النجاشى فيهم :

إذا اللهُ عادى أَهلَ لُؤم وَرِقَّةٍ فَعَادَى بنى العَجْلانِ رَهْطَ ابنِ مُقْبِل
قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بذمّــةٍ ولا يَظْلِمون الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

(١) الأغانى ٨/٧٧ .
(٢) الأغانى ٨/٨٢ .

وما سُمِّيَ العَجْلانَ إلا لقولهم خُذالقَعْبَ واحلُبْ أيُّها العبدُ واعْجَل

فخاصموه إلى عمر بن الخطاب فى قصة مشهورة[١] .

وحط من قدر الحبَطات – وهم بطن من تميم – قول الشاعر فيهم :

رأيت الحُمْرَ من شرِّ المطايا كما الحَبِطَات شرُّ بنى تَمِيمِ[٢]

وممن وضعه ما قيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه بنو نُمير ، وكانوا إذا سئل أحدهم . ممن الرجل ؟ فخمَّم لفظه ، ومد صوته ، وقال : من بنى نمير . إلى أن قال فيهم جرير :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

فجعل كل نُميرى إذاسئل عن نسبه قال : عامرى ، ويتجاوز نميراً إلى أبيه هرباً[٣] .

أولية الشعر

وأقدم ما وصل إلينا من شعر الجاهلية يرجع إلى ما قبل البعثة بقرن وبعض قرن من الزمان ، وليس ببعيد أن يكون بعضه قد تعرض للضياع ، لأننا لا نجد فيما بين أيدينا منه تلك المحاولات الشعرية الأولى ، التى تقضى بها سنة النشوء والارتقاء ، ومنه شعر مهلهل التغلبى المتوفى حوالى سنة ٥٣١ م وجليلة بنت مرة فى حرب البسوس ، وشعر امرئ القيس المتوفى حوالى سنة ٥٤٠ م ، ومن عاصره وجاء بعده من أمثال طرفة ولبيد والنابغة وعنترة وعمرو بن كلثوم وزهير والأعشى وغيرهم ، وهو فى جملته متشابه الموضوعات والمعانى والتشابيه والموسيقى ، لا تظهر فيه غالباً شخصية الشاعر إلا مندمجة فى قبيلته ، ولكنه صورة صادقة لحياة البادية ، ليس فيه خيال خصيب متنوع ، ولا إفاضة فى وصف المشاعر والوجدان . تجد هذا الشعر فى دواوينهم

---

(١) العمدة ١/٢٧ و ٢٨ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/٨٤ .

(٣) العمدة ١/٢٦ .

وفى معلقاتهم ، وفى المفضليات وحماسة أبى تمام ، وحماسة البحترى ، ومختارات ابن الشجرى ، وجمهرة أشعار العرب ، والأغانى ، والشعر والشعراء وغيرها .

أثر الإسلام والقرآن فى حياة العرب

وجاء الإسلام فأحدث تغييراً عامًّا فى حياة العرب الدينية والاجتماعيةوالسياسية والعقلية . دعاهم إلى عبادة الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، لا إله إلا هو ، ربهم ورب آبائهم الأولين ، والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر ، حيث يحاسبون على ما قدمت أيديهم ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ونهاهم عن الخمر والزنى والربا والميسر والقتل والسرقة والفحشاء والمنكر ، وحثهم على الصدق والصبر والعدل والعفة والعفو والوفاء والأمانة والإحسان ، وقال لهم : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

أمرهم بالصلاة ، وفرض عليهم الزكاة ، وقرر مبدأ التعاون ، ورتب فى مال الغنى ذلك الحق المعلوم للسائل والمحروم والنفع العام ، وعلمهم آداب اللياقة فى اللقاء والحديث والزيارة ، وصدهم عن استباحة الحرمات فى الأنفس والأموال والأعراض ، وجعل لتلك الحرية الطليقة قيوداً ، وسوى بين الناس فالمؤمنون إخوة ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وذم العصبية القبلية ، وهدم الوحدة الجنسية ، وفرض عليهم الطاعة لله ورسوله وأولى الأمر فى الأمة ، وجعل من المسلمين دولة واحدة ، يسوسها الرسول الذى أرسل للناس كافة ، ومرد أمرها إلى الدين الذى هو خير الأديان ، كما أنهم خير أمة أخرجت للناس ، فعليهم نشر دينهم ، ومحاربة الضلالة الشائعة من حولهم ، واشترى منهم نفوسهم بأن لهم الجنة ، وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار توكيداً عمليًّا للوحدة العربية ، وكانت الغزوات وما يلقاه المسلمون فيها من نصر مبين بشيراً بالدولة الإسلامية . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم

قد لقى عناء كبيراً فى نقلهم إلى هذه الحياة الجديدة ، فإنه استطاع بعد الهجرة أن يضع الأساس لتلك الحياة ، فقد ساد الإخاء ، وعم الأمن ، وقضى على الحروب والفوضى والثأر . وحطمت الأصنام . وجمعت الزكاة ، فرفع بذلك مستوى العرب العقلى إلى مرتبة عالية ، وخلصهم من انحطاط النظر وإسفاف الفكر ، حتى استطاعوا أن يؤمنوا بالمعنويات ويقدسوا الروحيات ، ويعبدوا إلهاً واحداً ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

وهكذا انتهت سياسة الراشدين إلى جامعة إسلامية ، وحميَّة دينية ، وأنفة بدوية ، وأريحيَّة عربية[1] .

وإذا كانت النَّزعات الجاهلية قد أبت أن تموت ، فاشرأبت العصبية القبلية للظهور من حين إلى حين . بين الأوس والخزرج تارة ، وبين المهاجرين والأنصار أو بين مكة والمدينة تارة أخرى . فإنها قد لقيت حكمة بالغة ، ويقظة ساهرة ، وحرباً لا هوادة فيها ، من الرسول والخلفاء الراشدين ، حتى رد إليها حياتها بعد ذلك بنو أمية .

والقرآن كتاب الله ، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وقد حمل إلى العرب تلك التعاليم والآداب والشرائع والمواعظ والأحكام الباهرة . وقص عليهم أحسن القصص ، ودعاهم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، فأعجزهم وبهر عقولهم بآياته البينات وهم أهل الفصاحة واللسن ، فشغلوا به حيناً من الدهر يقرءونه ويتدبرونه ، ويعالجون فنونه ، ويحاكون أسلوبه ، وكان لذلك أثره فى لغتهم عامة وشعرهم خاصة ، فتم اندماج اللهجات العربية فى لغة قريش ، لغة القرآن ، واتسعت أغراضها ، وارتقت معانيها ، وتهذبت ألفاظها ، ودمثت أساليبها ، وأحدث فيها علوماً كثيرة وفنوناً شتى ، نشأت حوله وتفرعت عنه .

أثر الإسلام والقرآن فى الخطابة والشعر

وقد عظم شأن الخطابة فى صدر الإسلام ، لأن كل دعوة تعتمد فى قيامها على ألسنة قوّالة ، تؤيدها وتنشرها . والإسلام دعوة عظمى لم يعهد لها فى العالم

---

(١) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ٤/٣٨ .

مثيل ، والشعر لا ينهض بأعباء الخطابة ولا سيما الدينية ، لأن الخطابة أقدر على شرح الحقائق ومناقشة المسائل ، ولأنها طريق الإقناع بالحجج العقلية والبراهين المنطقية ، والمؤثرات الوجدانية ، مما لا يتسع له الشعر ، وهى أقرب منالا وأسهل مأخذاً ، لخلوها من الوزن والقافية اللذين يقيدان الشاعر ، ولأن مجال القول فيها يتسع الإفهام الخاصة والعامة ، ولأن القرآن لم يعرض لها بما ينفر منها ، بل كانت عدة رسول الله وأصحابه ، وكانت شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين والحج والفتوح والغزوات ، وكان دعاة النبى صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وخلفاؤه وعمالهم ، كلهم خطباء مصاقع . وبعد أن كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لشدة حاجتهم إلى الشعر فى تسجيل مآثرهم وتفخيم شأنهم ، والتهويل على أعدائهم والإهابة بفرسانهم ، أصبح الخطيب فى الإسلام مقدماً على الشاعر ، لفرط حاجتهم إلى الخطابة فى استنهاض الهمم وجمع الأحزاب[1] .

وزاد شأنها عظماً بنهضة العرب للحروب ، وكان انتصارهم فى أكثر مواقعها مما ملأهم حماسة ، وشحذ قرائحهم ما شاهدوه فى البلاد الجديدة والأمم التى دانت لهم ، ونفحها الإسلام بلاغة وحكمة لمجاراتهم فيها أسلوب القرآن ، واتساعها للاقتباس من ألفاظه ومعانيه بما لا يتسع الشعر لمثله .

وكان نصيب الشعر من هذه النهضة محدوداً ، لأن الشعراء إنما كان أكثر قولهم عصبية جاهلية ، وفخراً وحماسة بما بين قبائلهم من تنازع ، ومطاولة بالأنساب والأحساب ، وهجاء ومدحاً باطلا ، وهى مذاهب حاربها الإسلام . وقد شغل بعضهم عن الشعر بالقرآن وأمر النبوة والجهاد فى سبيل الله ، وانصرفت قرائحهم الشاعرة إلى محاكاته ، ومعالجة الخطابة فى الشعر المنثور ، وقد تأثروا بما جاء به عن الشعراء فى قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » . كما أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يهيىء لعامة الشعراء مكاناً رحيباً فى كنفه ، لما كانوا عليه فى شعرهم من مذاهب لا يقرها الدين ، فكف بعضهم عن قول الشعر . وضاق نطاق الشعر كمًّا ونوعاً عما كان عليه فى الجاهلية ، ولكن الرسول رأى الإسلام فى حاجة إلى من يذود عنه

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن ٣/٩٨ .

خصومه ، فأقام جماعة من الشعراء للدفاع عنه ، ونشر دعوته ،والرد على المشركين وهجاء المعتدين ، هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، يؤازرهم شعراء من المهاجرين والأنصار ، فوجد الشعراء بذلك متنفساً لهم فى هذا المجال الجديد ، وظهر لون من الشعر هو شعر النهضة الإسلامية ، فيه إعلان للعقيدة ، ودعوة إلى الإسلام ، ووعيد للمشركين ، وتحريض على الكفار ، ودفاع عن الرسول ، وفيه الفخر والمدح والهجاء والرثاء، لكنه فى سبيل الله ورسوله، وحول الإسلام والمجاهدين من أبطاله وشهدائه ، وكادت معالم العصبية تختفى منه ، ولم يعد للخمر ذكر فيه ، إلا أن مناهجه ظلت جاهلية فى جملتها ، وإن أفاد الشعراء تقريب المعانى وترتيب الأفكار ، وحاولوا مجاراة القرآن فى جزالة لفظه ، وجمال جرسه ، وروعة أسلوبه .

وكان للنهضة الإسلامية أثرها فى إنماء الشاعرية القرشية ، فقد أخذت تستيقظ وتقوى ، بعد أن كانت هينة يسيرة فى الجاهلية ، وأخذنا نسمع فى تلك الحقبة بشعراء لم يكن لهم ذكر قبل الإسلام ، من أمثال أبى سفيان بن الحارث ، وعمرو ابن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبعرى . وظهر فى النساء شواعر منهن هند بنت عُتبة ، وهند بنت أثاثة ، وصَفية بنت مسافر ، وأخذ الشعر فى هذه الحقبة ينتقل من البوادى متجهاً إلى القرى، فكان أهم مواطنه المدينة ، ثم مكة ، وكان شىء منه بالطائف[1] . حتى إذا نهض المسلمون بعد الرسول لحرب المرتدين وفتح الممالك والأمصار أكثروا فى شعرهم من التباهى بالنصر ، ووصف المعارك ، وأحوال الحصار ، وآلات القتال .

سار الخلفاء الراشدون على خطة النبى فى تشجيع الناس على حفظ القرآن ، والعدول إليه عن الشعر ، ذكروا أن غالباً صحب ابنه الفرزدق وهو غلام إلى البصرة ، فدخل به على الإمام على بعد وقعة (الجمل) وقال له : إن ابنى هذا من شعراء مضر فاسمع له، فقال له على : « علمه القرآن[2] »، وأن عمر بن الخطاب كان يزيد فى عطاء من يحفظ القرآن من الشعراء ، وينقص من عطاء من لم يحفظ[3] . ولكنهم

---

(١) الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٧٣ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ١٨٣ .

(٣) الأغانى ١٤ / ٩٧ .

كانوا كالنبي أيضاً، يفرقون بين شعر وشعر، ولم يكونوا يرون بأساً من أن يقولوه، فقد روى لهم ولغيرهم من الصحابة بعض الشعر [١] ، وكان عمر يدعو العرب إلى حفظه وروايته . على أنه يمكن القول إن الشعر فى عصر الراشدين قد ركد ، لاشتغال المسلمين عنه بالجهاد ، إلا ما كان منه جهاداً ، كأشعار حسان وأصحابه فى الدفاع عن النبي والإسلام ، حتى إذا طمع بنو أمية فى الخلافة مع كثرة المطالبين بها من غيرهم احتاجوا إلى من يؤيدهم ، وينشر دعوتهم ، فاستنفروا القبائل بالعصبية ، واشتروا الأحزاب بالمال ، واستخدموا الناس بالدهاء ، وكان فى جملة ما استعانوا به الشعر والشعراء [٢] .

---

(١) العمدة ١/١٢ وما بعدها . جمهرة أشعار العرب ص ١٦ وما بعدها . الألوسى : روح المعانى ١٩/١٤٨ و ١٤٩ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١/١٨٤ . جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٣/١٠٢ .